الفصل الثالث

المحتويات

- **نظريات ومتناقضات في علم السكان**
- **الفصل بين المواقف النظرية والطرق المنهجية العلمية**

obeikan.com

obeikan.com

نظريات ومتناقضات في علم السكان:

كثيرة هي النظريات التي تشير إلى وجود التناقض في المعرفة، سواء كانت نظريات ذات صفة علمية أو اجتماعية أو طبيعية، ومن المؤكد أن بعض هذه النظريات تخضع لتأثير المصالح الخاصة، أو للأصول التاريخية للأفكار. وهذه السيطرة للنظريات أو الفرضيات المسبقة على عملية ملاحظة الواقع، أو إجراء التجارب عليه، هي من أهم أسباب دخول عنصر التحيز إلى العلم، فالنقل وإعادة الصيغ الفكرية يصبح عديم الجدوى إذا لم يحقق فائدة، والذي يحاول تطبيق نظريات محددة في زمان ما أو مكان دون الأخذ بخصوصية كل مرحلة أو حالة يفتقر إلى بعد النظر وعمق التفكير، وهذه التبعية الفكرية تكشف عن نقص في المعرفة والوعي. وفي العودة إلى تاريخ علم السكان منذ مئات السنين حتى يومنا الحاضر نلاحظ بوضوح هذا الكم الهائل من الآراء المتناقضة؛ النظريات يجب أن لا تكون بعيدة عن الواقع، فاللغة والفكر هما انعكاس للواقع الطبيعي والاجتماعي.

أفلاطون كان من أوائل المهتمين بعلم السكان ففي كتابه **"الجمهورية"** يرى أن عدد السكان يجب أن يتناسب مع حجم الدولة ومتطلبات الدفاع عنها، وقد تصور أفلاطون أن العامل الاقتصادي هو السبب في انقسام الدولة أو توحيدها، فالملكية الخاصة بالنسبة له هي مصدر الشر الأعظم، وهي تُنمي نزعات الأنانية وتخلق الصراع بين المواطنين، وهو ضد مبدأ التدمير والتخريب في الحروب ومهما بلغت الخصومة بين الدول يجب أن لا تُحرق البيوت أو المزارع، بل يمكن للمنتصر أن يستولي على الغِلال دون أن يتلف الحقول. ويعتبر أفلاطون أن الخلاص من الفساد يكون من خلال الحكام الفلاسفة النُخبة العارفة أصحاب الطبائع القوية التي لا تتوقف في سيرها المعرفي قبل أن تصل إلى فهم الحياة الحقيقية، والمعرفة هي معرفة قيام حكم

العدالة وطلب العلم والبعد عن الأوهام والملذات الجسدية، وهذه الطبقة هي وحدها قادرة على توزيع الأدوار بين المواطنين حسب الاستعدادات الفطرية لديهم؛ أما أفكار عامة الناس تتوقف عند الظن فهم لا يرون غير الظِلال والأضاليل، والطبقة العارفة ورثت المعرفة من الآلهة وليس من العالم الأرضي، **فأفلاطون** يهاجم العلوم الملحدة. " **لأنه لا يمكن لإنسان أقنعته الشرائع بوجود الآلهة أن يرتكب برضاه فعلاً كافراً أو أن يقول قولاً مجرماً** ". وهاجم **أفلاطون** علوم الرياضيات أيضاً، لقد اعتبرها أكثر وضوحاً من الأفكار ولكنها ليست إلا معرفة وسطية بين الرأي والعلم، ويرى أفلاطون أن النظريات الضعيفة هي مثل الطاعون الذي يهدد المدن ويُصيب الشباب والبيوت الخاصة، ولهذا انقلب على علوم عصره المتعارف عليها التي لا تُنتج العلم الحقيقي ولا المعرفة الحقيقية وهي لا تحتوي على عنصر ثابت غير متحول، وفي هذه العلوم بعض النظريات التي لا تقود إلا للكفر والجريمة، وخطأ هذه النظريات أنها قلبت المسائل ووضعت سبب فساد الكون في الأشياء المادية وفي أمور الجسد، وتجاهلت أمور النفس التي هي السبب الأول لوجودنا وليست نتاجاً له، وهذا هو مصدر الأخطاء التي تتعلق بفهم ماهية الآلهة، فعالمنا خُلق بفضل الصلاح الإلهي الذي أعطاه النظام ليتقبل كل الأشياء ويوفر مقراً ومكاناً لكل الكائنات، وهذا العالم يكفي ذاته ويستطيع أن يدافع عن ذاته لأن صانعه مبدع خارق. [1]

وفي العصر الوسيط تميز **أبن خلدون** في دراسة الواقع السكاني والعلاقة بين السكان واستغلال الثروة والاقتصاد وظروف العمل ويُعتبر أبن خلدون من مؤسسي علم الاجتماع السكاني.

---

1 المصدر كتاب د. حسين حرب، أفلاطون، دار الفكر اللبناني. سلسلة الفكر اليوناني، عدد ٢.

ولكن النظريات السكانية بدأت تتجه إلى التشاؤم مع **روبرت مالتوس** ١٧٦٦- ١٨٣٤ الذي كان مغالياً في نزعته التشاؤمية حيال عجز العالم عن تأمين الغذاء في المستقبل، ويرى مالتوس أن قدرة الإنسان على التكاثر تتجاوز بكثير إمكانية زيادة المواد الغذائية فالزيادة السكانية تخضع في نموها للمتوالية الهندسية (١، ٢، ٤، ١٦، ٣٢،...) بينما الموارد الغذائية تخضع في نموها للمتوالية الحسابية (١، ٢، ٣، ٤، ٥،...) فالتناقض بين قدرة السكان على التزايد وقدرة الأرض على إنتاج الغذاء هي سبب المعضلة السكانية حسب رأي مالتوس. **والخلاصة** التي يتوصل إليها مالتوس إلى أن مشاكل الجوع والبطالة والفقر وانتشار الرزيلة، إنما هي مشاكل حتمية ترجع إلى هذا القانون الحتمي الطبيعي الموجود في كل زمان ومكان، وهذه المشاكل لا صلة للأنظمة الرأسمالية في حدوثها، أو لطريقة الحكم، ولا صلة لها أيضاً بسوء توزيع الثروة والدخل؛ بل أن الفقراء حسب رأي مالتوس يجلبون لنفسهم الشقاء بسبب تكاثرهم، فهم يجهلون حقيقة سلوكهم الجنسي وما يترتب عنه من نتائج وخيمة؛ وكان مالتوس من أشد المعارضين لقانون **إغاثة الفقراء** أو توزيع بعض المعونات عليهم فهذه الإعانات لا يكون من نتيجتها إلا تشجيع الفقراء على الزواج وزيادة النسل.

يتهم بعض العلماء المالتوسية بأنها سياسة لتعزيز الرأسمالية التي تسعى للسيطرة على شعوب الدول الفقيرة، وأشار معظم المحللين إلى أن تاريخ جميع الحضارات المعروفة يشهد بأن فترات التقدم عند معظم الشعوب تميزت بأنها فترات نمو سكاني، وأنه ليس من الضروري أن تؤدي الزيادة السكانية إلى ارتفاع الأسعار بشكل عام، ورأى بعضهم أن للزيادة السكانية مزايا جيدة إيجابية منها توسيع نطاق السوق والمبادلة، وارتفاع معدل الربح، وتقسيم العمل، ومثل هذه الآراء سببت الخلاف الحاد بين مالتوس وبين بعض معاصريه أمثال "جودوين" و"كوندرسيه" فهما يعتبران أن سبب ما يعانيه الناس

من آلام وفقر وحرمان يرجع إلى الحكم الفاسد والجشع والقوانين الجائرة وروح الأنانية، ولو تمكن الإنسان من إصلاح الأنظمة ستتغير أحواله.

ولكن كما كان لمالتوس معارضين كان له مؤيدين أيضاً مثلاً: **جان باتست ساي** (١٧٦٧ – ١٨٣٢) في رسالته عن الاقتصاد السياسي سنة (١٨٠٣) نراه يردد تقريباً نفس الأفكار المالتوسية. أما الاقتصادي الفرنسي **فريدريك باستيا** (١٨٠١ – ١٨٥٠) يختلف مع الرؤية المالتوسية بخصوص الخوف من تزايد السكان، فهو يرى أن للتزايد السكانى منافع عديدة منها التقدم الاقتصادي وزيادة حجم التبادل التجاري وحجم الجهود في العمل، ولكنه يتوافق مع مالتوس من حيث تدعيم النظام الرأسمالي فهو ضد الأنظمة الاشتراكية، فالاشتراكية في تصوره تقضي على المسؤولية الفردية والحوافز الشخصية. أما **جون ستوارت مل** (١٨٠٦ – ١٨٧٣) كان يردد خلاصة ما توصل إليه روبرت مالتوس وكان يؤمن بقانون الغلة المتناقصة بيد أنه لم ينظر إلى الوضع نظرة سوداوية كما مالتوس فبث روح التفاؤل من خلال الإيمان بقدرة العقل البشري على التخلص من المشاكل التي قد تسببها الزيادة السكانية.

ومنذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومع بداية الثورة التكنولوجية في الزراعة والصناعة زاد مستوى الإنتاج وارتفعت معدلات الأرباح وازدادت فرص العمل ولم تعد الصورة قاتمة كما في أذهان المالتوسيين؛ وبالرغم من التزايد السريع لعدد السكان في معظم دول العالم حيث وصلت نسبة الزيادة إلى ٥٤ ٪ خلال نصف قرن فقد تحسنت معظم مستلزمات العيش مثل الرعاية الطبية وبدأت حملات التطعيم ضد الأمراض المُعدية، وتحسنت طرق الاتصالات ووسائل النقل، وقد ساعدت الهجرة على التخفيف من الاكتظاظ السكاني في بعض المناطق حيث كانت هذه الهجرات من العوامل المهمة التي أدت إلى توزيع العمال المهرة ونقل الخبرات، مما ساعد على التقدم وزيادة الإنتاج.

كارل ماركس (١٨١٨ – ١٨٨٣) يعتبر أن لا وجود لمشكلة سكانية إذا كان هناك توزيع عادل للدخل، والملكية الخاصة عائقاً يحول دون تطور الإنتاج.

وهناك مجموعة كبيرة من المفكرين الاشتراكيين شنوا حملة على مساوئ النظام الرأسمالي وما يتسم به من عدم عدالة في توزيع الدخل، وتعاطفوا بشدة مع أحوال العمال والبؤساء. من هؤلاء المفكرين **سان سيمون (١٧٦٠ – ١٨٢٥)**، الذي كان يمقت العنف بشكل جذري، ويعتبر الإقناع أفضل من العنف، فالأفكار يتم تداولها كما النقود، وهذه الأفكار تحرك المجتمع وتحفزه. **أوغيست كونت** مؤسس لعلم اجتماع السكان يُعتبر تلميذاً لـ **سان سيمون** وهو فيلسوف فرنسي عاصر فترة اتسمت بحروب ونزاعات سياسية واجتماعية وهذه التجارب دفعته إلى التفكير بوضع علم للمجتمع يجنبه النزاعات السياسية ويحقق السلام الاجتماعي.

ومن أهم علماء الاقتصاد الذين ربطوا بين المسائل السكانية والحالة الاقتصادية للمجتمعات **آدام سميث** (١٧٢٣- ١٧٩١). **وديفد ريكاردو (١٧٧٢ – ١٨٢٣)** برهنا عن وجود علاقة بين الحركة السكانية وحركة رأس المال وتطوره.

ومن بين الكتب الحديثة التي تؤكد أن لا صلة بين الكثافة السكانية ومسألة الجوع في العالم، كتاب **لفرانسيس لابيه، وجوزيف كوتلر** بعنوان (عشر خرافات للجوع في العالم) فالمجاعة لا تنتشر في الدول التي فيها عدد أكبر من السكان، مثلاً في مقارنة بين الصين والهند، يُوضح الكتاب أن الشعب الصيني تمكن من القضاء على كل أثر للجوع، بينما لا يزال الملايين يجوعون في الهند، بالرغم من أن الأراضي المزروعة في الصين توازي نصف الأراضي المزروعة في الهند.

ومن أهم النظريات الحديثة المهمة التي ينبغي الإشارة إليها نظريات المؤرخ **أرنولد توينبي**، من مواليد (١٨٨٩) في لندن، الذي انشغل بدراسة اضمحلال الحضارات، ولم يكن من المنظرين فقط، بل كان من الباحثين الذين يدرسون المجتمعات عن قرب، كما سمحت له وظيفته في وزارة الخارجية البريطانية من رؤية الكثير من الوثائق المزورة التي يتلقفها المؤرخون ويقتبسون منها تاريخ الشعوب. وانتهى في تحليله إلى إن حضارة الغرب في طريقها إلى الزوال بعد أن بلغت أوجها ولم يعد في وسعها مواصلة الصعود. وينتقد **توينبي** الكثير من النظريات وخاصة النظريات العرقية التي تُفضل شعوب على أخرى، كما تمرد على مناهج بعض المؤرخين. ويَعتبر توينبي أن الظروف الصعبة هي التي تحث الإنسان على التحضر، فالشدائد وحدها تستثير الهمم، والمجتمع هو الذي يجلب على نفسه الانهيار أكثر مما تجلبه عوامل خارجية حين تفقد الأقلية الحاكمة الطاقة المبدعة فيها وتتحول إلى قوة مُسيطرة بالقهر، فالصانع الحقيقي للتاريخ هو الشخصيات المبدعة سواء كانوا شعراء أم سياسيين أم قادة أم مؤرخين... . ويقول أن التكنولوجيا تعمل على سطح الحياة، فالتكنولوجيا مكنت الإنسان من السيطرة على الطبيعة ولكن ذلك جعل من الإنسان عبداً لبيئة جديدة مصطنعة وأقل ملائمة من البيئة الطبيعية، وهذا التقدم التكنولوجي ليس دليلاً على رقي المجتمع إذ قد يحدث التقدم في مرحلة تدهور المجتمع. ومن أهم نتائج هذا التقدم هو اختلال التوازن في توزيع الثروات في العالم، لقد أصبح الناس سجناء الإنجازات التقنية وفقدوا الرضا الروحي، فالارتقاء الحقيقي للحضارات يتمثل في الارتقاء الروحي، وسيطرة الإنسان على الطبيعة لا تقل أهمية من إثراء الجانب الروحي فيه؛ ولا أمل في استقرار السلام، أو طمأنينة الإنسان، إذا لم يكتشف فعل الله الواحد الحق، والسلفيين أو المتزمتين لن يقدموا حلولاً جذرية لمشاكل العالم.

النظرة التشاؤمية عند **توينبي** ليست بسبب الزيادة المفرطة بعدد السكان كما عند **المالتوسيين** بل بسبب الصراع الرهيب بين دول إقليمية وبسبب الرعب النووي.

فعلاً إن لهذه النظرة التشاؤمية عند **توينبي** ما يبررها وهي مقنعة، من المؤسف والمخيف أن يُستخدم التقدم العلمي في خدمة الحروب الوحشية، ومن المؤسف أن يتعرض بعض المعارضين للحروب للظلم بسبب مواقفهم، وعلى سبيل المثال: "لقد حوكم الفيلسوف **برتراند رسل** بسبب معارضته للحرب العالمية الأولى وفصل من جامعة كامبردج وأُخضع للمحاكمة بتهمة التشهير بالحكومة البريطانية والجيش الأميركي، ودخل السجن عام ١٩٦٢ بتهمة العصيان المدني حين كان يتزعم الحملة التي كانت تدعوا إلى نزع السلاح النووي من جميع أنحاء العالم."[1]

أوزفلد شبنجلر Oswald spengler **(١٨٨٠ – ١٩٣٦)** المتخصص في العلوم الطبيعية والرياضية يُعد كتابه " انحلال الغرب" الذي صدر عام ١٩٢٠ من أهم كتبه وكان ممهداً للاشتراكية وهذا الكتاب لقيٌ اهتماماً بعد الحرب العالمية الثانية وهذا الكتاب أثر ب توينبي تأثيراً بالغاً. **شبنجلر** الذي اعتبر الزيادة السكانية من أعظم أسباب تقدم الإنسان معتمداً في اعتقاده على أهمية الذكاء والمهارة عند الإنسان لتحقيق التقدم، والمطلوب للتقدم ولاستمرار سعادة البشر التركيز على أهمية القيم، وكبح جماح النفس، والتخلي عن الطمع للحد من الشر. والتدهور في المجتمعات يحصل بسبب انعدام الابتكار الفني وبسبب السيطرة المادية والاتجاهات اللادينية "إن عصراً تسود فيه الآلية وتسيطر عليه الاتجاهات اللادينية هو عصر تدهور واضمحلال" (شبنجلر). وهنا يظهر أمامنا تصور جديد لسبب تدهور المجتمعات

---

1 د جهاد ملحم، العلم والحرب، عالم الفكر، العدد ٢ المجلد ٣٦ ص ٢٤٥.

obeikan.com

يختلف تماماً عن النظرة المالتوسية أو الماركسية، وهذه النظرة تتمحور حول الافتقار إلى روح الإيمان التي تنبذ كل أشكال العنف والطمع والعداوة بين الناس؛ وهنا في هذه الفكرة يمكن أن يتقاطع موقف "**شبنجلر**" مع موقف "**كانط**" الذي يرى أن اختلاف الأديان لا يمكن أن يحول دون السلام العالمي، طالما أن الأديان كلها تنتهي إلى الاعتراف بالألوهية.

المشكلة واحدة وهي البحث عن المخاطر التي تهدد مستقبل البشر، ولكن النظر إليها يَنصب من مواقع مختلفة، ومن ذوات مختلفة وقيم وأيديولوجيات مختلفة، وثقافات مختلفة، وأحياناً تكون النظرة إلى الواقع بعيدة كل البعد عن الواقع. وغالباً ما يكون الباحث أو المحلل غير مدرك للدوافع التي تتحكم في سلوكه ولقد أظهرت مكتشفات **فرويد** عن اللاشعور أن الانفعالات تتحكم في سلوك الناس أكثر مما يتحكم فيه المنطق والعقل، وأكد **فرويد** على أهمية خبرات وتجارب الطفولة في بناء وتحديد شخصية الفرد. ولكن من الذي يفصل بين الفكر المجرد والموضوعي وبين الأفكار والتصورات التي لا تتطابق مع الواقع؟.

هذه الدراسات وهذه الآراء حول الحجم الأنسب للسكان، ما زالت مدار جدل، ولا شك بأن الكثير من النظريات العلمية تتأثر بالعوامل النفسية والمعتقدات، أكثر مما تتأثر بمراقبة التجارب، ولقد كشفت خبرات وتجارب الأخصائيين عن خطورة الصراع حول القيم، مثلاً أَتباع النظرية المالتوسية أو الداروينية يقولون: بأن البقاء للأصلح وأن الأفراد الفاشلين أو المعوقين يجب التخلص منهم وإبعادهم عن المجتمع، ومن ناحية أخرى أَتباع الفكر الديني وفلسفة حب الإنسانية يعتبرون أن طبيعة الإنسان مقدسة مهما كان شكله أو لونه أو قدراته، وهذا الصراع لا يزال قائماً بين هذين المذهبين المتعارضين؛ الباحث الحقيقي يستطيع وبكل تجرد وموضوعية تقديم مناهج لمعرفة إمكانيات الأفراد وتفهم حاجاتهم وهذا الباحث الموضوعي من أكثر الناس

خبرة ويستطيع الحكم في هذه المسائل. وما فائدة العلم إذا لم يأتي بنتائج مقنعة، أو يقدم الإجابات والحلول الناجحة!.

الفصل بين المواقف النظرية والطرق المنهجية العلمية:

عندما يكون هناك مخاوف وأفكار متباينة لا يمكن لجهد فرد بمفرده أن يمثل نموذجاً واحداً كأساس للبحث العلمي، فالبحث العلمي يقوم على الموضوعية والحياد لا على ما يتناسب مع طموحات الأفراد أو تصوراتهم الشخصية، وعند تحليل أي نظرية يمكن أن نميز بين النظريات الموضوعية العلمية وبين النزعات الأيديولوجية التي تعبر عن اتجاهات ومعتقدات أو مصالح؛ فالمعرفة بمختلف أنواعها أصبحت تخضع لتأثير شكل المجتمع ولم تعد التجارب الحاسمة هي الركيزة الأساسية للعلم، ولهذا من الضروري التنسيق والتعاون بين العلماء والفلاسفة لتقويم النظريات وتحليلها، واستبعاد الآراء التي تفتقد إلى الموضوعية العلمية أو اليقين.

التصلب هو من أكبر الأخطار التي تواجه سلامة الفكر، ومعظم الناس يتأثرون بالمنقول الثقافي أكثر مما يتأثرون بالوراثة البيولوجية؛ وسيطرة الفرضيات العقلية على عمليات ملاحظة الواقع وإجراء التجارب هو من أكبر المشكلات التي يعاني منها العلم. **بوبر** يعتبر أن الأفكار المسبقة والفرضيات التي تسيطر على أذهان الباحثين تدفعهم لتأكيد هذه الفرضيات أكثر مما تدفعهم إلى اكتشاف الحقيقة، حيث يأتي تفسيرهم للمشاهدات والأحداث تأكيداً على ما يعتقدون، ويرى بوبر إن أول من استشعر هذا الخطر على العلم هو **بيكون الذي** طلب من العلماء أن يطهروا عقولهم من كل النظريات المسبقة أثناء القيام بتجاربهم، ولكن **بوبر** وجد أن هذا الاقتراح يتعذر الأخذ به لأن الموروث الثقافي يصعب التخلص منه، ولذلك قدم اقتراحه الذي يتألف من خطوتين، الخطوة الأولى: استبدال مبدأ **"قابلية التحقق"** بمبدأ **"قابلية**

التكذيب"، فمن الضروري أن يسأل العالِم نفسه " هل نظريتي قابلة للتكذيب؟". والخطوة الثانية: هي **"المقاربة النقدية"** والمقصود بهذه الخطوة إخضاع النظريات بشكل مكثف للنقد والمناقشة بين العلماء، فالعلم لم يعد يمتلك نظريات لا تخضع للنقد، أو غير قابلة للتغيير والتعديل؛ ما يريد **بوبر** أن يثبته هو أن هناك نظريات كثيرة في العلم تم التأكد منها تجريبياً، ثم أتضح بعد ذلك إنها نظريات ليست صادقة، لأن تلك التجارب خضعت لتأثير الفرضيات المسبقة، وإخضاع النظريات لقابلية التكذيب سوف يحد من تأثير الفرضيات المسبقة في عملية إجراء التجارب على الواقع. وفي محاولة لتقديم إجابات عن تلك الأسئلة قام كل من **غاستون باشلار** (١٨٨٤ – ١٩٦٢) **و وتوماس كون** (١٩٢٢ – ١٩٩٦) في دراسة حول أثر العوامل النفسية والثقافية والمعتقدات على تفكير العلماء، فوجدوا أن لهذه العوامل أثراً على نتائج التجارب أكبر من التجارب نفسها، فالأفكار الموروثة والمعرفة العامية تُسيِّر بحوث العلماء أكثر مما تُسيرها التجارب نفسها. مع **باشلار** لم تعد الحواس والفرضيات العقلية والتجارب كافية لتأكيد القوانين، فكل القوانين العلمية الصارمة عُرضة للتغيير والتعديل. – إذا كانت القوانين العلمية الصارمة تتغير وتتبدل فهل يمكن بناء معرفة على أساس ما يتناقله الناس بالانطباع والتقليد!.-